

ولما كانت القاعدة المشثومة تزيد واردات الخزينة بأي صورة كانت من أجل أن تصرف على بذخ الظالمين في الأستانة وكان بعض القائمقامين والمتصرفين يخشون النقص عن البدل السابق أنشأوا يضيقون على مستخدمي العداد ليأتوا بزيادة الواردات يحملون الفقراء العاجزين ما ينقصونه عن الأغنياء فتبلغ ضريبة أغنام الفقراء أضعاف أضعاف ضريبة أغنام الأغنياء وأرباب السطوة والصولة ولهذا فقد نقص رسم تعداد الأغنام على توالي الأيام نحو أربعمئة ألف ليرة في المملكة كما أنه قل الخير وهجر الغنم أصحابها وقل اعتناؤهم وقلت المواشي فارتفعت إبان اللحم والسمن وضاق أمر المعاش.

ولو نزلت الضريبة إلى حد الصدقات وفرقت الحكومة بين الضان والماعز وعدلت في رسم تعداد البقر والإبل المسومة لتفس الأهالي وهانت عليهم الضريبة واعتقدوا أنها فرض ديني فلا يخفون ولا يهربون مواشيهم بسبب قلة الضريبة وأداء الفريضة فحينئذ يرغب الناس في تكثير الغنم والماعز وإصلاحها لكثرة ريعها ووفرة أرباحها فيكثر السمن والصوف والشعر فهل المواد الصناعية الابتدائية ويخرج ذلك إلى الممالك الأجنبية فتستفيد الخزينة من تمنع التجار والصناع ورسم الكرك (المكوس) ويرخص السمن واللحم فتسع على الناس معاشيهم وتقوى على العمل أجسامهم وقد وقفت عند هذا القدر ريثما يتم النظام الجديد وسأعود إلى البحث إذا دعت الحاجة والله الموفق.

شكري العسلي

ضراء العلماء

بين هذا الجيل الناشئ نفرةً لم يكتب لهم الوقوف على حضارة المشرق وآدابه بل غاية ما وصلت إليه أفهامهم من البحث والتدقيق أخذهم بغشاء العلوم الغربية الحديثة فقط فراحوا وهم ثملون بمحالة تلك الشماله يهرفون بما لا يعرفون زاعمين أن المشرق وحده منبعث الأعمال البربرية كما أن البعض حتى من علماء المغاربة يصورون الشرقي ذلك الغر الجرد والعربي ذلك الذي يخوض بحاراً من رمال محرقة وأشعة الشمس المذابة قطراقاً تتصبب عليه فتصهر رأسه في فضاء صحاري جرداء تكاد لا تتناهى . . .

ولو قمياً لذلك العربي ما قمياً للغربي من التربية والبيئة (المحيط) وتكاثر الوسائل والوسائط ما كان مدعاةً للتأثير في أخلاقه وأفكاره وخیالاته وقوته العقلية وطبيعته الحيوية الخ. . . . لاستعاض عن ظلال الخيام التي كان يستحضر في زواياها بدور الكيمياء ذات البيان الضخم والمعامل الكبيرة ولكانت له ضفاف الأثمار مباءة يتفيؤ ظلالمها الخضراء.

ولقد رأينا العرب لما اختلفت عليهم مثرات التربية والبيئة وأنشأوا يدوحن الممالك ويمصرون الأممصار أمة ناهضة بلغت في التحضر والتمصر شأواً بعيداً وضربت في المدنية والعمران بسهم وافر. ونبع بين ظهرائهم من الدهاق من ألفوا في العلم والاجتماع والأدبيات على اختلاف ضروها فبرز الكندي وجابر الكوفي والطوسي وابن رشد وابن سينا والفارابي وابن أبي أصيعة والسمرقندي في الرياضيات والطب والفلسفة والغزالي والرازي وابن حرم وابن باجة وابن خلدون والمصنبي والمعري في الاجتماع والتاريخ والأخلاق والشعر وأخذ العظماء من الأمراء يسرفون في إنشاء معاهد العلم في بغداد وسمرقند والشام والأقطار الأخرى وعهدوا وظيفة التحليم إلى من تأفقت شهرتهم في العلم في ذلك العصر مما يدل على نهضة علمية كبرى نشأت في

المشرق بقي من آثار القانين بها أطلال بالية ومن نتائج قرانهم بقايا ملئت بها
مكتبات المشرق والمغرب على كثرة ما عداها من عوادي الأيام.

ألا وإن الأمم تسير في تقدمها وتأخرها على نواميس عامة قد لا تختلف في الغالب إلا
بقدر الاستعداد الفطري وتأثير الإقليم. وما يصح أن يقال عن تلك الأمم من الأعمال
البربرية أن هو إلا أمر طبيعي لا بد من وقوعه بين أي شعب أسفً للانحطاط في العلم
وأخذ للجود في الدين.

مر على أوروبا من أدوار الظلم والظلمات ما سجل لنا التاريخ من آثارها في الأمم
الغربية ما يصح أن يكون عبرة همجة وذكرى سوء. وذلك في الغالب يرجع إلى
عوامل ثلاثة كانت علة العلل لما نجم عنه من سقوط وصعود: الملوك ورجال الكنيسة
والنبلاء. أما النبلاء: فلم يؤثر عنهم في الأعم الأغلب من حالمهم سوى أنهم كانوا
يسعون وراء تأييد نفوذهم ونيل مشتاهتهم وملذوذاتهم بأية طريقة كانت سواء دعا
سعيهم هذا إلى إهراق دماء الشعب وابتزاز أمواله واكتساح الأراضي الشاسعة من
مستعمراته أو إلى مقاومة الملوك إذا آسوا منهم مالا ينطبق على ما يترعون إليه من
حب السلطنة والجار الذي كان دينهم وديدهم حتى أتيح لهم نفوذ قوي كان لهم عوناً
في عامة ما تذرعوا به من الذرائع لحفظ سلطتهم واحرازهم ميزة على غيرهم من بني
الشر حتى في المحاكم ومسائل القضاء.

وأما الملوك: فإن استشارهم في الملك وإغراقهم في البذخ والترف جملهم على مبالغتهم
في الإرهاق والعسف وإتيانهم كل امرئ منكر لمطاردة قادة الأفكار من رجال الأمة
فكان الملك يذبح أيامه ولياليه التي كان يجب أن يقضيها فيما يعود على الأمة والوطن
بالمصلحة العامة في اختراع صنوف الخيل والدساتيس قارة وفي أحلام الموبقات مرة

أخرى فمن طنطنة أقداح إلى إزافة ابتسامات بين وصيف وبغا وكثيراً ما كانت الحرب بالباب والسلطان في لعب.

ومما ساعدتهم على عملهم هذا غفلة الشعب واتخاذهم من اعتقاده بالملوك والقباصرة والأقيال والأكاسرة إهم آلهة الأرض والأمرون الناهون في العالمين آله صماء لتنفيذ آمالهم وأعمالهم. فكان الشعب مغلول اليد والفكر واللسان ليس له من الأمر شي إلا الطاعة العمياء. وفوق هذا كله فإنه كان يرى في هذه الطاعة خيراً يصيبه أو ثوباً يناله. ولم يكن من الشعب الغافل إلا أن وسهمهم بالألقاب السماوية ووصفهم بعامه صفات الربوبية.

وأما رجال الكنية: فكانوا يبالغون أيضاً حفظاً لسلطتهم واستبقاء لعزير جبروتهم في اضطهاد العلم والعلماء. وتم لهم ذلك بما أسدلوه على الأبصار من السجف المبرقشة التي هي ليست سوى خيالات خداع وختل ونفاق وتلاعب قالوا عنها أنها الدين وليست منه في شيء حتى كان منهم أن كانوا يقسمون الممالك ويوزعونها ويخلعون من الملوك من يشاؤون وكانوا كما قال أحمد شبيب بك حكام أوربا المطلقين (ديكتاتور).

غضب مرة الأب (هيلدي بران) على هنري الرابع وأصحابه فحرمهم جميعاً حتى اضطر الإمبراطور هو وزوجته إلى أن يقصدوه ليغفر لهم سيئاتهم فقطع جبال الألب في أيام الشتاء وقد ارتدى قميصاً أبيض أعد للمجرمين ووقف أمام القصر الذي كان جالساً في صدره ذلك الأب ثلاثة أيام وهو يرتجف من صارة القر وأخيراً أذن له بالحضور فتمثل بين يديه وقبل قدميه وهكذا استطاع أن يظهر بظهور العفو.

وإن أعمال رجال الكنيسة في محكمة التفتيش لا تكاد تحصى آثارها من صفحات الوجود فقد كان الغرض من إنشاء هذه المحكمة مقاومة العلم والفلسفة عندما خيف ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصاً في جنوب فرنسا وإيطاليا.

وفي مدة ثماني عشرة سنة من سنة ١٤٨١ - ١٤٩٩ حكمت على عشرة آلاف وميتين وعشرين شخصا بأن يحرقوا وهم أحياء فأحرقوا وعلى ستة آلاف وثمانمائة وستين بالثقل بعد التشهير فشهروا وشنقوا وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنذت ثم أحرقت كل توراة بالعربية.

وقد قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٣ أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه من ينظر في كلامه شيئا من الصناعة والعبادة. قال الأستاذ الشيخ محمد عبده: لكن ذلك لم يمنع الأمراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه وتحلية العقول ببعض أفكاره ثم قال: وأوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب أهل أوربا ما خيل لكل من يلعب في ذهنه شيء من نور الفكر إذا نظر حوله والتفت وراءه أن رسول الشوم يتبعه وأن السلاسل والأغلال أسبق إلى عنقه ويديه من ورود الفكرة العلمية إليه.

هذا ولا تنس ما كان للحروب والثورات باديء بدء من التأثير السيء في الحركة العلمية في المدارس فالثورة الفرنسية دعت إلى إلغاء دار الفنون الذي ظل يختلف إليها الطلبة منذ زمن مديد. وألغيت بالقرار المؤرخ في ١٠ آذار عام ١٧٩٤ كلية باريس وثلاث وعشرون جامعة في الولايات الأخرى وصودرت أوقافها وأملكها وإن حروب التتار الشعواء أغارت على الجامعات التي أنشئت في مدينة (نوفوغوردو) و (كرسون) و (موسقو) من بلاد روسيا لما فتحها التتار بحد سيفهم.

ولما دب في بولونيا ديب الحياة وقامت تطالب باسترداد حريتها أنشأت الحكومة الروسية تدرع بكل جليل وقافه لصد هجماتهم وأول ما بدأت به إغلاق الجامعات والمدارس ومن ذلك جامعة (فارسوفيا) الشهيرة التي أغلقت عام ١٨٣٢ وظلت

كذلك موصدة سنين وأعواماً. وإنه وإن أذن للجامعات بعدئذ أن تفتح أبوابها بيد أنه لم يعد يراعى فيها أصول الحرية في التربية والتعليم في حال من الأحوال. وإنك لترى الجامعات والمدارس بعد ما توالى على أوروبا من الأزمات العلمية والفكرية في حالة النزاع والاحتضار إدارة وتعلماً. فأما ما كان من أمر العلم فأما كانت تسلك الخطة التي كانت متبعة في القرون الوسطى وكان المتفكرون على موائد العلم يتصافقون الرتب العلمية على رؤوس الأشهاد ولم يكن من المعلمين الحقيقيين من يستطيع أن يدرّب التلاميذ على أصول التربية الحديثة وإن كان يوجد فإنهم كانوا يتقاضون مرقباً نزريراً يسيراً.

في ذلك الزمن الذي اشتدت فيه الأزمة كانت أوروبا تتمخض بالثورات السياسية والدينية. بيد أنها لم تستطع أن تضع حملها إلا بعد أن نبغ فيها فريق من أهل العلم والأدب فبدأوا يجردون بما في طوقهم وطاقاتهم وراء مكافحة أولئك الخونة المارقين ومنافحتهم في القلم واللسان ليستردوا لبني البشر حقوقهم المغصوبة فكان فيهم العلماء والحكماء والأدباء والقصاصيون والشعراء أمثال نيوتن وباكوتن وبيكارث وميكرو وفولتر ولامارتين وتولستوي ولوك وفيختي وكانت وميرابو ومولير وغيرهم من رجال الإصلاح وكذلك كان بين هؤلاء من رجال الإصلاح الديني كثيرون ومن أشدهم جهاداً وجلاداً لوثيروس زعيم المذهب البروتستانتي في البلاد الأوروبية والأميركية جمعاء.

فسد هؤلاء العظماء العجز في تربية الشعب وتعليمه واغتنت النفوس بما تجدد في البلاد من الأوضاع وما ظهر في عالم المطبوعات من المصنفات العلمية والأدبية واكتسبت بما اكتسبته من الحلل القشبية ميلاً خاصاً من القلوب فتهاوت الناس عليها وهم في أشد الحاجة إلى ما يححو ما تلتطخ على صفحات الأفكار من الشوائب المبهمة. وكان أول

انقلاب وقع في نظام الأسرة (العائلة) والمعتقدات. وتمثل هذا الانقلاب بأكمل مظاهره في المبادئ والأفكار وعلم الشعب حتى العلم أنه مهضوم الجانب مهض الجناح وأن الملوك والأمراء بأجمعها ليست سوى إجراء له وأنذ نزع استرداد حقوقه بما مازج روحه من قوة الحرية في القرون والعسل.

شعر الملوك ورجال الكية لما آنسوا من الشعب ميلاً إلى الإصلاح ورجاله بالخطر الذي يهدد سلطتهم المطلقة فأخذوا يضيفون على مطالبهم الأولى ضرورياً من الخنايات والخيانات. ألا وإن قبصر الباستيل والآلة المدعوة المقصلة (كيلوتين) ومحكمة التفتيش وفيافي سيريا وسراي التويليري أعظم شاهد على ما أتوا به من الفظائع والمجانح لناهضة العلماء والحكماء ورجال الإصلاح:

هذا لافوازيه العالم الكيماوي المشهور الذي عني بهذا الفرع من العلم عناية خاصة واكتشف عناصر جديدة لم تكن معروفة من قبل ووضع نواميس عامة أبان فيها ما خفي تعليله على المتقدمين حتى دعي بـ (واضع الكيمياء الجديدة) — هذا الرجل على فضله وعلو كعبه في العلم وخدمته الإنسانية جمعاء حكم عليه بالإعدام وسبق إلى ساحة القتل حيث ذهب ضحية الجهل والغدر والخيانة.

وهذا غاليله العالم الإيطالي الفلكي المشهور عقدت من أجله جلسات متوالية في إيطاليا ضمت أهم رجال الكية وغيرهم وأجمعوا بخروجه عن أوامر الدين في قوله بحركة الأرض ثم حكموا عليه بالإعدام فالتفت إلى الجمهور وهو جذل فرح وقال: هي تدور وفوق ذلك هي كروية.

وكذلك دانتي حكيم إيطاليا وشاعرها أمر الكردينال بورجينو عام ١٣٣٩ بإحراق بعض مؤلفاته في بولونيا جهاراً وطلب إخراج جثته من القبر وإحراق عظامها انتقاماً من على إلحاده ثم لم تقض على هذه الأحكام عشر سنين حتى شعر الشعب الإيطالي

بمثلة هذا الجدل ففي سنة ١٣٥٠ قررت جمهورية فلورنسا أن تدفع مبلغاً من النقود إلى ابنة له راهبة تدعى بتريس وفي عام ١٣٩٦ قررت أن يبنى له ضريح ويقام له تذكار في فلورنسا على أفهم ما زالوا يحاولون بذلك إلى أوائل هذا القرن فابتوا له ضريحاً وقد احتفلوا بافتتاحه في ١٤ تموز عام ١٨٦٥ وهو تذكار مضي ستمائة سنة من يوم ولادته.

ومثله فولتر حكيم الأدباء في فرنسا نظم قصيدة مهاجراً بها لويس الرابع عشر ملك فرنسا فحكم عليه بالسجن فسجن في الباستيل سنة نظم أثناءها قصيدة سماها التعاقد (ليج) ورواية دعاها (أوديوس) قالوا أنها أحسن ما كتبه من حيث شرح العواطف الحقيقية وذلك عام ١٧١٨ ثم أطلق سراحه بدعوى أنه مريض يحتاج إلى تبديل الهواء في (بلومبيار) فسار وقد عول على أن لا يعود إلى فرنسا ولكن قلمه ثنى عزمه فعاد إلى مثل ذلك فأعيد إلى السجن مهاناً بالضرب واللكم عام ١٧٢٦ فلبث هناك ستة أشهر ثم أطلق سراحه والتجأ إلى إنكلترا لعله يتخلص من دسائس الفرنسيين.

ولقد كتب مقالات فلسفية قيل أنه تعرض فيها للدين والسياسة فأحرفت بأمر مجلس الأمة (البرلمان) واضطر إلى مغادرة باريس خوفاً على حياته وقد ذهب بعضهم إلى أنه ملحد لأن الكهنة لم تأذن بدفنه على العادة المألوفة وإن أحد أبناء أخيه كان رئيساً لدير فأخذ الجثة سراً إلى دير ودفنها في الكنيسة وفي سنة ١٧٩١ نقلت الجثة إلى البانيون مدفن الملوك والعظماء والكبراء.

وكذلك روسو فإنه نال من نبال الطعن والاحتقار ما لا يكاد يحظر على بال وما ذنب هذا الرجل الكبير — كما قال أحد حكماء فرنسا — سوى أنه خالف سنة أهل النظر في عصره وهي اعتمادهم في إصلاح المجتمع الإنساني على الرجال ومخاطبتهم إياهم فيه بأن وجه خطاباً إلى الوالدات والأطفال وهو أمر هداة إليه ما فطر عليه من جودة

الطبع وذكاء القريحة ثم قال: وإن أردت أن أبين لك كيف خدم روسو الأطفال خاصة بما نشره في كتبه من الانتصار لهم قلت أن ذلك إنما كان بما ألقنه تلك الكتب في نفوس الفرنسيين من بذور الثورة وهيأها به لها.

ومثله لوثيروس المصلح الديني الألماني فإنه قام بالدعوة إلى ما صح عن المسيح فطبق ما ورد في الإنجيل ضارباً بتلك الأوهام التي تعلقوا فطفوا بما عرض الحانط. وأول ما ناهضه هو مسألة العفران ولم ير داعياً للأبوة فألغى الرتب الروحانية وشركات الدنيا والقاعدة التي تحول الرهبان عدم الزواج ظهرياً.

وحملته طبيعة الحال على أن يدعي ويثبت مدعاها بأن كنائس الكاثوليك جمعاء تناقض أحكام الدين المسيحي على خط مستقيم وقد دعا الإمبراطور شارل كان المجلس العام في ألمانيا إلى الالتئام فالتهم وطلب المجلس بأكثرية الأصوات إحراق لوثيروس وقد كاد يقع ذلك لولا أنه أقام سنة كاملة في دار نبورج محتفياً عن أعين الرقباء وأتم خلال هذه المدة ترجمة الإنجيل الذي كان شرع بترجمته بادئ بدء وأحدث انقلاباً كبيراً في الأدبيات الإنكليزية والأفكار.

وبلغ بالقسيسين التعصب في إسبانيا على عهد سكيون الثالث مبلغاً هذا حده ولم يكن منهم إلا أن أبعدوا عامة من كانت همهم أريحية الوطنية أيام كان القسم الأعظم من واردات الحكومة مخصصاً لصندوق الكنية. وإن شعور التعصب قد بلغ في أوروبا أشده حتى كان الوباء إذا فشا نسب إلى الموسويين ومن ثم ترى هؤلاء المساكين يستهدفون لضروب الإيذاء والجفاء ما الله به عليم.

وبعد فإن سلطة العلم لا تقاوم ومن قاومها كان خليقاً بكل أذى يلحقه إن لم يكن عاجلاً فأجلاً. وصوت العلم النافع — كما قال رنان — كثيراً ما يتضاءل أمام هجمة المهاجمين وفتحة الدجالين وللعلم صوت متى سكن ضجيج تلك الظواهر يظل ذاك

الصوت يسمع فلا يعود أحد يسمع غيره قال: ومن أجل هذا ترى الخمام العلية على كثرة شكوى أهل الأفكار المحطمة منها فائرة بفضل الغلبة لأنها حارسة حسن الترتيب الحقيقي وهي قليلة ولكنها مفلحة وليس لغير العقل سلطة تبقى.

وإن رجال الإصلاح كلما أغرقوا في الدعوة إليه صموا آذانهم عن جلبه الوشاة والمشائين ولم يحفلوا بما يترن بساحاتهم من الكوارث وإنما ليعدون ما يصيبهم من إهانة واحتقار شرفاً لهم وفخراً كما قال الكتاب الفرنسي: كل قبضة من الوحل تلقى في جهة صاحب صناعة فهي إكليل من الفخار وقد سيق من سيق من هؤلاء المصلحين إلى القتل وعلى شفاههم تلوح ابتسامة السرور ولسان حالهم يقول كما قال لازوروس: نحن نموت الآن لأن الشعب نائم وتقومون أنتم غداً متى استيقظ الشعب.

هذه آثار الأدوار السوداء ونتائجها ولقد كان للأمم الشرقية من آثار مثل هذه الأدوار حظ وافر ولو لم يرل فيهم من القوة بقية ومن الذكاء الذماء لأودت بحياتهم الأدبية منها والمادية. ومما يقوي آمال رجال الإصلاح ويشد عزائمهم ما رأوه من نهضة المشاركة في هذه القرون الأخيرة فقد تناولت الحركة الإصلاحية الشمس المشرقة (اليابان) ففارس فالأمة العثمانية مما يدل على أن الاسعداد كامن في نفوس البشر الترية تظهره والإهمال يخفيه.

ولا بدع إذا قامت تلکم الأقوام بنهضة حديثة اهتزت لها الأرض من أقصاها إلى أقصاها وهم الذين كانت لهم فيما مضى حضارة ضخمة فخمة قضت عليها النواميس الطبيعية بالاندثار والعباء وقبضت من رجال الغرب عني بأمرها فبزوا بما وبرزوا. وما على الأمم الشرقية اليوم إلا أن تطرس على آثار الغربيين في العلم والاجتماع وتأخذ بالأمور المعقولة من حضارتهم ومدنيتهم ليكتب لها عصر مديد وتاريخ مجيد! . .